الأدبُ الإسلاميُّ في أحضَانِ المعَاصرةِ

د. هناء علي سبيناتي

نحن أمّة تشكّلت من خلال (كتاب)، وانطلقت من (اقرأ)، فكان كتابنا معجزة بيانية وتربويّة وإعلاميّة، وأوتي رسولنا (ص) جوامع الكلم وفصل الخطاب، وكنّا أمة العلم والأدب والفكر والقيم.

وإذا كانت اللغة هي الوطن الحقيقي الذي يشكل الهويّة والخصوصية، فإنّ الأدب هو الذي يمنح الرؤية للحياة، وفلسفة التعامل معها، وهو أحد مقوّمات نسيجها الاجتماعي وبنائها الثقافي، وصناعة وجدانها، وترميم ذاكرتها، وتكوين هويّتها، وضمان تماسكها، وتواصل أجيالها، وتشكيل نمط تفكيرها، والتأثير في أخلاقها، وتحريكها وتغيير واقعها، والإفادة من مخزونها التاريخي.

وإذا كان الأدب مرآة الأمّة ودقّات قلبها، فإنّ الباحث في هذه الأيام العجاف لا يرى فيه البتّةَ ملامح الإسلام ولا العروبة، ولا أشواق أمّة تكافح من أجل رسالتها وثقافتها الذاتية، ومما لا ريب فيه أنّ غياب القراءة والثقافة الصحيحة هي مشكلة عالمنا الإسلامي اليوم، وقد لا يكون الأمر عفويّاً، وإنّما هو من لوازم الهزيمة والسقوط الحضاري، فتمكين الشعوب من القراءة والاطّلاع يزيد من وعيها وإدراكها، واستشعارها لحقوقها وواجباتها، وإن المشكلة تكمن اليوم في إشاعة فلسفة الهزيمة والعجز والتخلّف، ومحاولات إلغاء خميرة النهوض، وغرس روح الهزيمة الثقافية والفكرية في نفوس الأجيال.

وما الذي نجده اليوم في أدبنا؟ لا شيء إلا انعدام الهدف، والتسوّل من شتى الموائد الغربية، وحَيرة اللقيط الذي لا أبوّة له! لا شيء إلا صورة إنسان معذّب حائر قلق ممزّق، يقضي عمره المحدود في اهتمامات محدودة تافهة لا ترفعه ولا تزكيه!

وإنّي لأربأ بهذه اللغة الشريفة التي نزل بها القرآن الكريم، وتكلّم بها الرسول (ص) وأصحابه، أن تسخّر للأغراض التافهة، وإنّي لأغار على هذه اللغة بسحر أدبها، وتعبيرها الجميل، وتصويرها البارع لخواطر النفس وألوان الحياة، أن تضيع في الألحان والأغاني، وأن تصوّر جوانب الضعف ومواضع السقط، وكم أتمنّى أن تستخدم هذه المعجزة البيانيّة، وهذه الثروة اللغوية الفذّة في مقاصد شريفة، وأغراض نبيلة، وفي تصوير جانب مشرق من أمجاد عريقة وحضارة وارفة الظلال.

إنّ أقلام الأدباء اليوم تسعى إلى نشر الانحلال الخلقي باسم التقدم، وتشجّع انحدار الإنسان من مستواه الذي كرّمه به الله على العالمين إلى مستوى السوائم، إنّها لا تلتزم قضايانا، ولا تسهم في تجسيد تطلعاتنا وآمالنا، بل تحاول أن تبتعد عن التعبير عن مشكلات حياتنا وعقيدتنا ووجودنا ومصيرنا، وما الذي يُميّز الأمة المسلمة من سائر الأمم، إن لم يكن اعتزازها بالقيم وتشبّثها بالفضائل والمثل العليا؟.

لقد ظهرت في الآونة الأخيرة نماذج أدبية سيئة، محورها الإنسان عندما يتنازل عن إنسانيته ليحيا بالشهوة فقط، ونماذج منحلّة تثير شبابنا المتوثّب فتشغله عن قضاياه ومشكلاته الأساسيّة، وتعطّل طاقاته البنّاءة، وتبدّدها في طريق الخيالات الجنسيّة المحمومة، والمعاناة المكبوتة المدمّرة، حتّى أُصبنا بالتخمة من هذا الأدب الطامي الذي يطلع علينا صباحَ مساءَ، ولا نرى فيه إلا صوراً وتماثيل لا حياة لها.

إنّنا نحتاج الآن إلى أدب ينفخ في نفوسنا حياة جديدة وروحاً جديدة تحرّك أوتار القلوب، وتعطّر الأجواء، وتتغلغل في أحشاء المجتمع العربي الإسلامي، وفي أحشاء الأدب العربي المعاصر.

إنّنا نحتاج إلى أدب هادف، دافق بالحيوية، متدفّق بالقوة، يحمل رسالة سامية سماويّة إنسانيّة، وما أحسن قول محمد إقبال: "يا أهل الذوق والنظر العميق، أنعِمْ وأكرِمْ بنظركم! ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خيرَ في نشيد شاعر ولا في صوت مغنٍّ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس".

(١)

إنّنا نحتاج إلى أدب يحمل نور الإسلام، ونبض الإيمان، يحمل الخلق والإيثار والتضحية، يحمل معاني البطولة

والتسامي على الشهوات والأنانيّات، أدب ينقل الناس من الظلمات إلى النور، ويأخذهم إلى عالم الإيمان الوضيء الرحيب، إلى عالم مطمئن آمن متفائل سعيد، لا تحاصره المخاوف، ولا تسوده الأهواء والظنون، عالم لا ينسحق فيه الإنسان، بل يجد نفسه فيه قبالة اللحظة المشحونة بالوعد والعطاء، وإزاء الدافع الملحّ المترع باللهفة والشوق للإفصاح والتعبير، وما أجمل ما تمثّل به رسول الله (ص) -مما ورد في الصحيحين- عندما قال:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ
وفي سبيل الله ما لَقيتِ

ما أحوجنا الآن إلى أدب إسلامي يكون على مستوى الأمة، فينشئ نفوساً على الجَلَد وتحمّل المشاقّ، وعلى الغيرة الإيمانية، وإيثار الآخرة على العاجلة، والاستهانة بالحياة الدنيا وزخارفها، يقول خير الدين الزركلي مخاطباً أمّته العربية الإسلامية:

هاتي صلاحَ الدينِ ثانيةً فينا
وجدّدي حطّينَ أو شبهَ حطينا

إنّ الأدب الإسلامي هو الذي يرتقي بالإنسان، فيحوّل لغته من لغة الأميّة والجهل (العاميّة) إلى لغة العلم والحضارة (الفصحى)، ويهتمّ بحسن الأداء وبناء الشخصيّة الثقافية للإنسان العربي، من دون أن يصير وسيلة استلاب ثقافي في داخل الأمة، وجسراً لنقل (الآخر) بكلّ أحماله، إنّه يستشرف آفاقاً أخرى، آفاقاً بعيدة الحدود، ترفع الإنسان وتعطيه قيمة، وتضعه موضع الحقّ في هذه الحياة الدنيا، بين الحق والباطل، والارتفاع والهبوط، والقيم العليا والخواطر السافلة، والآفاق الممتدّة في أعماق الزمان والمكان والحدود الضيّقة التي تكتم الأنفاس، بين التضحية والأنانية، والحب والكراهية، والعدالة والظلم، والجمال والقبح، والسعادة والشقاء، وتنقله إلى عالم الحب والرحمة والتآلف والوداد.

وهل يُتصوَّر هذا من غير عقيدة تتغلغل في الأحشاء، ونشوة إيمانية تسري في العروق، ولذّة روحيّة تتغلّب على الشعور بالألم؟ وهل يُتصوَّر هذا من غير عقيدة لا تملك إلا سلامة القلوب، وصفاء الصدور، والحبّ البريء، والشوق إلى الجنة، ورجاء الثواب على الأعمال الحسنة؟ وهل يُتصوّر هذا من غير عقيدة الإيمان التي تأتي بعجائب لا يتخيّلها العقل ولا الوجدان؟.

إنّ الأدب الإسلاميّ هو الذي يبحث عن الكنوز الدفينة، والثروات المطمورة في أرض القلوب المؤمنة، وهو الذي يكشف عن مدى ما تفعله عقيدة هذا الدين في نفس صاحبها، إذ يتحوّل فيها الضعف إلى قوّة، والجبن إلى شجاعة، والكسل إلى شعلة من الحيوية والنشاط، يقول محمد إقبال: (٢)

أحبُّ احتراقي بنارِ اشتياقي
ولا أرتضي عيشةَ الخاملين
فناءُ الفراشةِ في النّارِ يعلو
حياةَ الجبانِ طوالَ السنين

ومحال أن ينهض أديب ربّاه الأدب وحده، من دون أن يكون له شأن بالإسلام وحقائقه، إنّ الذي يصلح أن ينهض بهذا أديب ربّاه الإسلام أولاً، وعاش له ثانياً، ثمّ انطلق يحقّق أدبه ضمن منهج محدّد وفي سبيل غاية واضحة، فالأديب الإسلامي هو الذي يسكب نفسه وهو ينظم أو يكتب، يذوب وجداً وهو يعبّر، يمنح قلبه وإحساسه ووجوده بالكلية لما يقول، ولا يستبقي لنفسه شيئاً، فيستجيش مشاعرنا ويهزّنا من الأعماق، وممّا قاله إقبال في روائعه: (٣) "إنّ كلّ إنتاج لم تذب فيه حشاشة النفس مشوّه وناقص، وكلّ رنة أو نشيد لم يتفجّر معها دم القلب ضرب من التسلية والعبث، ولا مستقبل له في عالم الأفكار".

فالذين تحرقهم نار العقيدة لا يستطيعون السكوت عن الزيف والخداع، والذين تغلغلت في دمهم وأعصابهم مبادئ الإسلام لا يستطيعون القعود والانتظار، وقوى الشرّ تأخذ بزمام البشرية وتسير بها في طرقات الشيطان فتعذّبها وتسحقها وتشقيها، ولو كنّا في مستوى أدبنا ولغتنا وتقنيات عصرنا لاستشعرنا الواجب نحو اكتشاف آفاق للامتداد بثقافتنا وقيمنا وعقيدتنا ورؤيتنا الحضارية، ولتنبّهنا إلى تأثير الكلمة وسحرها ومفعولها.

إنّ الغاية من الأدب الإسلامي خلق أجواء خيالية جميلة أمام الروح، كي تسبح فيها وتحلّق صعداً في طبقاتها، فتسعد بهذا الخيال واتساعه، وتطمئنّ في نسماته الرخية وظلاله الآمنة، بعيدةً عن ضوضاء الواقع وآلامه، وحسب هذا الأدب أن يكون لحناً روحانياً حالماً يبثّ ألواناً هادئة من الطمأنينة في النفس والفؤاد.

فلماذا لا تكون هناك قصص وروايات عاطفيّة تستهوي النفس والفكر، تُعرض فيها الفطرة الإنسانية على وجهها الإسلامي السليم بأسلوب أدبيّ محض، ثمّ تُضمَّن بين سطورها -في براعة ولباقة- ذاتيةَ الإسلام في مختلف قيمه العلوية الخالد؟ أفتكون هذه الموضوعات الأدبية صالحة لأن تمتدّ فيها عروق الزيغ والفساد الفكري، ثمّ لا تكون صالحة لأن يتناولها أناس صالحون، فيمدوا فيها عروقاً من

التوجيه السليم والاستقامة الراشدة؟! ألا يوجد لدينا أدب يوجّه إلى الخير والفلاح؟ ألا نستطيع عرض الأمثلة الرفيعة في سياقات رائعة جميلة من المقالة أو الرواية أو القصيدة طالت أم قصرت؟

إنّ في التراث القديم ذخائر أُهيل عليها التراب، ونماذج من صميم الأدب العربي الأصيل تمتاز بأنّها هتافُ فطَر صافية عالية، وبأنّها بناء بلاغي محكم يعين على بقاء اللغة سليمة الأداء رفيعة المستوى، وهي أيضاً تربط عصرنا بجذوره، وتجعل حاضرنا امتداداً له، وتعيننا على الفهم السوي للكتاب والسنّة، وللعرب في أفق المكارم والمحامد آداب رفيعة استوحوها من تجاربهم، ومن أشواقهم إلى العزة، ورغبتهم في وفرة العرض وصون الجانب، وهم يرون أنّ الركوع للشدائد لا جدوى منه إلا الذلة التي منها يأنفون، وأن هذه الشدائد لا تقيم بساحة إلا ريثما تتحول عنها، فعلى المرء أن يواجه ما يكره بجَلَد، آملاً أن تنقشع الغمة ثابت القلب، رابط الجأش، يقول عبد العزيز بن زرارة الكلابي (ت ٥٠هـ): (٤)

قد عشتُ في الناس أطواراً على طُرقٍ
شتّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفَظَعَا
كُلاً بلوتُ فلا النَّعماءُ تُبْطرني
ولا تَخَشَّعتُ من لأوائها جَزَعَا
لا يملأُ الهولُ صدري قبلَ موقعه
ولا أضيقُ به ذرعاً إذا وَقَعا

ويقول محمد بن بشير (ت ١٣٠هـ) مبيّناً محاسن خلقه، وقوة إرادته، وقدرته على ضبط نفسه: (٥)

لأن أُزَجّيَ عندَ العُرْيِ بالخَلَقِ
وأجتزي من كثير الزاد بالعُلَقِ
خيرٌ وأكرمُ لي مِنْ أن أرى مِنناً
معقودةً للئام الناس في عُنقي
إنّي وإنْ قَصُرتْ عن همّتي جِدَتي
وكانَ مالي لا يقوى على خلقي
لتاركٌ كلَّ أمرٍ كان يُلزمني
عاراً ويشرعني في المنهل الرَّنقِ

إنّ صياغة القرآن الكريم لأجيال المسلمين حدّدت أهدافهم وصانتها وزكّتها، وما أحسن قول الشاعر: (٦)

ولي بالله إيمانٌ وثيقٌ
فمَنْ لكمُ بإيمانٍ وثيقِ؟
قويتُ به فما أعيا بعبءٍ
ولا أشكو عَثَاراً في طريقي
ولا أخشى المضرّةَ من عدوٍّ
ولا أرجو المبرّةَ من صديقِ

وقد عاب بعضهم على الشعر العربي أن يكثر فيه المديح، غير أنّك تعرف قيمة هذا النقد عندما تقرأ بيت أبي تمام:

ولولا خلالٌ سنّها الشعرُ ما درى
بغاةُ العُلا مِنْ أين تُؤتى المكارمُ؟

فالأدب الإسلامي المبدع هو خير وسيلة تبعث فينا الحسّ المترع بالغبطة الروحية، والفرح الغامر، والأمل الكبير، وتجعلنا نعلو شيئاً فشيئاً على آلامنا ومتاعبنا ومخاوفنا وأحزاننا، ذلك أنّ القلب يخفق بحبّ الفضائل والمثل العليا، وأنّنا لن نتأثر بتلك القيم السامية، ومظاهر الرقة والجمال النفسي والخلقي، إلا إذا كانت لحناً عذباً يفيض رقة وسلاسة، ويمتلئ بالصور الحية والمتحرّكة، ومن أمارات الحيوية في أدبنا القديم هذه الكلمات لابن الجوزي يدعو فيها إلى علو الهمّة، ويطلب من المسلم أن يكون طليعة سابقة في كل ميدان، يقول: "وينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصوّر للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض! ولو كانت النبوة تحصّل بالاجتهاد رأيت المقصّر في تحصيلها في حضيض!" (٧)

إنّ هذه الهمسة الشمَّاء نضحت من وحي الإيمان الحقّ، ومن خصائص التربية الإسلامية في الشروق المحمّدي الأول، وهو الشروق الذي قاده رجال أصحاب عَزمات شداد، وآمال عِراض، ولربما وجدنا هذا في مثل قول المتنبي: (٨)

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ عيباً
كنقصِ القادرينَ على التمامِ

إنّ النفس الإنسانية تبهرها العظمة، ويعجبها العظماء، ويسرّها الإقبال عليهم، والتودّد إليهم، والتنويه بآثارهم، وكم من عبقري لم نرَ شخصه طوينا القلوب على محبته، والإعجاب به لأنّ أبصارنا تعلّقت بمواهبه الجليلة، وتميزه الرائع، ففعلت صورته الباطنة ما تفعله صور الجمال الحسي بألباب العشّاق، ومن ذلك ما نجده في قصيدة حافظ إبراهيم (العمرية) الخالدة التي ذكر فيها تاريخ عمر بن الخطاب، وأخلاقه، وحكمه المثالي، وفتوحاته الرائعة، وسيرته العطرة، إذ يقول: (٩)

وراعَ صاحبَ كسرى أن رأى عمراً
بينَ الرعيّة عطلاً وهو راعيها
وعهدُهُ بملوكِ الفرسِ أنّ لها
سوراً مِنَ الجندِ والأحراسِ يحميها
رآهُ مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالةَ في أسمى معانيها
فوقَ الثرى تحتَ ظلّ الدوح مشتملاً
ببُردةٍ كادَ طولُ العهدِ يُبليها
وقالَ قولةَ حقٍّ أصبحتْ مثلاً
وأصبحَ الجيلُ بعدَ الجيلِ يرويها:
أمِنتَ لمّا أقمتَ العدلَ بينهمُ

فنمت نومَ قريرِ العين هانيها
رأيُ الجماعةِ لا تشقى البلادُ به
رَغمَ الخلافِ ورأيُ الفردِ يُشقيها

وفي تصدّي سيف الدولة للإمبراطورية الرومانيّة وشجاعته في قتال الروم يقول المتنبي:(١٠)

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنّك في جفنِ الردى وهو نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمى هزيمةً
ووجهُكَ وضّاحٌ وثغرُكَ باسمُ
ولستَ مليكاً هازماً لنظيره
ولكنّه الإسلام للشرك هازمُ

إنّ حسن تقديم سيَر البطولة أنتجت أبطالاً وقادة فاتحين، وإنّ دراسة حياة الصالحين صنعت رواد صلاح نجحوا في إصلاح الأمّة، وإن قصص الخيال العلمي في عالم الطفولة أنتجت علماء ومخترعين على مرّ العصور.

وقد استطاع مصطفى صادق الرافعي أعجوبة الأدب والبيان العربي في عصره، أن يعالج الموضوعات الوجدانية والعاطفية، وأن يتعمّق في النفس والوجدان، ويصوّر خلجات الأعماق ونزعاتها الهامسة الغامضة، ولا سيما في (السحاب الأحمر) و(رسائل الأحزان) و(أوراق الورد) و(القلب المسكين) و(الجمال البائس) و(حديث القمر) و(سمو الحب) وهذه الكتب وأمثالها من الفصول العاطفية الوقّادة، لم تكن إلا منجماً يزخر بتبر من القيم الإسلامية العليا، نقرأ في سطورها الحب واللوعة والأشجان، ونقرأ بين سطورها آيات من الفكر الإسلامي المتبصّر الحكيم، فكان الرافعي أول أديب عربي في العصر الحديث يفلسف الحب وما يخالطه من مشاعر، ويغوص إلى أعماق النفس، ويحلّل فورانها بطريقة لم يسبقه إليها أحد، ففي هذين البيتين يصوّر حباً حزيناً دامعاً يخفق له القلب، ويشعر معه بالأسى واللوعة: (١١)

مَنْ للمحبّ وَمَنْ يعينه؟
والحبُّ أهنؤه حزينُه
أنا ما عرفتُ سوى قسا
وته فقولوا: كيفَ لينُه؟

إنّ الرافعي ما فتئ يتتبع ملامح إنسانية دقيقة، ويتوجّه إلى عالم القلب مع تأكيد قيمة الإنسان، وهذه قضية كبيرة في الآداب بعامة، وفي الأدب الإسلامي بخاصة، فالإنسان في الأدب الإسلامي قيمة لا تعلو عليها إلا قيمة جلال الخالق عزّ وجلّ، وإنّ روعة الكيان الإنساني لفتت مفكرينا من قديم، وجعلتهم ينوّهون بها، ويومئون إلى أسرارها إيماءَ المبهور بما وراءها، يقول العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠ه): (١٢)

إذا كنتَ تقرأُ علمَ الحروف
فشخصُك لوحٌ به أسطُر
وتمثالُ ذلكَ أنموذجٌ
لكلِّ الوجودِ لمن يبصرُ
حروفُ معانيك لا تنجلي
لذي الجهل كلا ولا تظهرُ
ومَنْ يكُ غراً بأسرارها
فمعروفُها عندَه منكرُ
إذا كان جسمك جسماً صغيراً
ففيك انطوى العالم الأكبرُ
فلا ذرةٌ منك إلا غَدَتْ
بها يُوزنُ الكونُ بل أكثرُ
ولا قطرةٌ منكَ إلا وفي
ينابيعِ أسرارِها أبحرُ
وكلُّ الوجودِ إذا قِسْتَهُ
إليكَ فذاكَ هو الأصغر
وما فيه من عَرَض حاضرٍ
يزولُ وأنتَ به جوهرُ
فأنتَ الوجودُ وكلُّ الوجودِ
وما في وجودك لا يُحصرُ

يرى الشاعر هنا أنّ الإنسان خلاصة الكون، وأنّ كلّ ما في هذا العالم من خيرات وكنوز وبدائع وعجائب، يتمثل في هذا الجسم الصغير، إنّه ذرة ضئيلة ولكن انعكست فيها الشمس، إنّه قطرة صغيرة ولكن انصبّ فيها بحر العلم، إنّه غاية هذا الخلق، لأجله خُلق العالم، وهو القطب الذي تدور حوله رحى الكون، إنّ كلّ ما في هذا العالم من جمال وكمال إنّما خلق لأجله، إنّه جمال الدنيا وواسطة العقد وبيت القصيد.

هذا وإنّ الأدب الإسلامي كلّه يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة، ولطالما ترنّح بهذا الرجز والحُداء القوي شعراء، ولطالما ردّدوه وضربوا على وتره، فمحمد إقبال يرى أنّ المسلم الحقّ المؤمن الصادق، هو الملجأ الوحيد لهذا العالم الحائر الزائغ، فلن تمحى ظلمات الفساد والضلال إلا بأضواء الإسلام، وسفينة الحق الضائعة في هذا العالم –عالم الأهواء والقشور– لن تجد ربّاناً سوى المسلم الحق: (١٣)

إنّ هذا العصرَ ليلٌ فَأَنرْ
أيّها المسلمُ ليلَ الحائرينْ
وسفينُ الحقّ في لجّ الهوى
لا يرى غيرَك ربانَ السفينْ
أنتَ كنزُ الدرّ والياقوت في
موجةِ الدنيا وإنْ لم يعرفوكْ
محفلُ الأجيالِ محتاجٌ إلى
صوتكَ العالي وإنْ لم يسمعوكْ

إنّ محمد إقبال هو أول أديب مسلم

في العصر الحديث استطاع أن يستلهم الإسلام في شعره، فهو يحمل آمال أمته وآلامها، وتتدفّق أشعاره كلّها بالحيوية والصدق والحماسة، ففيها العواطف كلّها من حبّ وحنين وشفقة وإخلاص للعقيدة، وإيمان بكرامة الإنسان وحقّه في الحياة الحرّة الكريمة، ذلك أنّ التجارب العميقة التي عاشها الشاعر، والحالات الروحية المنتشية، كانت ترتفع به إلى أعلى درجات الانفعال بما يشعر، وقد اندفع يسجل هذا في شعره، في كلّ صورة وظلالها، في كلّ إيقاع من إيقاعاته، وكلّ نغمة من نغماته، فكان لابدّ من أن يصيبنا من وهجها المشرق ونورها الوضاء ما يجعل ما يقوله ذا أثر خاص في القارئ والسامع، بعد أن وهب عاطفته وصدق إحساسه لعقيدته فحسب، وما أجمل قوله: (١٤)

اليوم أُسمعكَ احتدامَ مشاعري
وصراخَ إيماني وصوتَ مُنايَ
المستحيلُ بَدا لعيني ممكناً
سأُري الخليقةَ ما رأتْ عيناىَ
لم ألقَ في هذا الوجود سعادةً
كمودّة الإنسان للإنسانِ
لمّا سكرتُ بخمرها القدسي لم
أحتجْ إلى تلكَ التي في الحانِ

هذا هو عبق الزهرة التي يحييها نسيم ربيع المصطفى (ص)، وهذا هو إقبال الذي يوقد شموع القلوب بعد أن غرقت في بيداء الظلمات، ويبعث فيها شعلة الإيمان والأمل بعد أن ضرب اليأس أطنابه، أصغِ معي إليه وهو ينتشي زهواً وفخراً بنسبته –وهو الهندي الأعجمي– إلى الحجاز ونوره، تلك النسبة التي أحالت نفسه درة لم تحترق بأتون الغرب وحضارته: (١٥)

أَسْمِعهمُ يا ربّ ما ألهمتني
وأَعِدْ إليهم يقظةَ الإيمانِ
وأذقهمُ الخمرَ القديمةَ إنّها
عينُ اليقينِ وكوثرُ الرضوانِ
أنا أعجمي الدنّ لكنْ خمرتي
صنعُ الحجازِ وكرمها الفينانِ
إن كانَ لي نغمُ الهنودِ ولحنهم
لكنّ هذا الصوتَ منْ عدنانِ

كان إقبال يعيش حياته متحرّقاً علينا، يحبّ أن نشعر بمشاعره، وأن نتلظّى بناره، عاش مع الهموم التي كان يتقلّب فيها الإنسان في شتى أطراف المعمورة، ولكم كان يُنبّه إلى أنّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنّما هو فروع لمشكلة جذرية واحدة، هي ضياعنا عن الذات، وأنّ ذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنّما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا، فلنحاول إذاً أن نعثر على هويتنا، وأن نكتشف ذاتنا، من أجل حلّ مشكلاتنا، يقول منشداً: "إنّ الشبابَ المثقفَ فارغُ الأكواب، ظمآنُ الشفتين، مصقولُ الوجه، مظلمُ الروح، شغفتهم الحضارةُ الغربية، فيمدّون أكفّهم إلى الأجانب ليتصدّقوا عليهم بخبز شعير، يتراءى ذلك أنّ أحدهم حيٌّ يُرزق، ولكنّه في الحقيقة ميّت استعار حياته من الغرب".(١٦)

إنّه ملتاع على شباب المسلمين، وضياع شخصيتهم في شخصية الغرب، وفراغ قلوبهم من ألم الحب لوعةً تُبكي أولي الضمائر والوجدان، يقول: "أي ربّ اجرح أكباد شبابك بسهام الآلام، وأيقظ في صدورهم الآمال النائمة، ارزقهم لوعة القلب، وامنحهم حبي وفراستي، أي ربّ ارزقهم أنيني في السحَر، وأَنْبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي".(١٧)

لقد سرى من أدبه إلى أفئدة الناس تيارٌ ألهبها إيماناً وحماسة، واستهانة بكلّ نكبة تأتي في طريق الإسلام ودعوته، ومشعلٌ يوقد في صدور الناس نار الحيوية والإبداع، ويحثهم على بناء شخصية إسلامية متكاملة، وحياة مثالية رائعة، وهو قبل ذلك كله يحمل موهبة لا يحملها إلا مَنْ آتاه الله فراسة قوية، وإدراكاً دقيقاً لطبيعة الأشياء، وقبساً من نور يضيء مجاهل الطريق، لذا نراه يخاطب المربين والمعلّمين: "وأنت يا مربي الجيل! حيّا الله شبيبتك، علّمهم الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بالشخصية، علّمهم كيف يشقّون الصخور ويدكّون الجبال، فإنّ الغربَ لم يعلّمهم إلا صنع الزُّجاج".(١٨)

لقد كان إقبال في أدبه كأنما يستشعر دائماً أنّه لم يخلق لنفسه، وإنّما للإسلام، وأن الروح التي تخفق بين جنبيه ليست شيئاً آخر غير روح الإسلام التي يجب أن تظلّ خفّاقة في عالمه الذي يعيش فيه، لذا نراه يلتمس في إنارة سبل الإسلام غذاء حياته وراحة نفسه، فكان أدبه صوتاً إسلامياً مدوياً في شتى أطراف العالم، يخشع له العدو والصديق، ويهتزّ بتأثيره القاصي والداني، وكان أهم ما يشتاق إليه في عالمنا هذا هو أن تعود إليه وحدته الإسلامية، أن تعود إليه قوته الجبارة، التي ركنت منذ دهر طويل في مخزن التاريخ، فيتجه إلى العرب بزفراته منشداً: "أسفاً على الخمود والجمود! يا عُمّار البادية، كنتم أمة واحدة فصرتم اليوم أمماً، وكنتم حزباً واحداً فأصبحتم أحزاباً، يا رجل البادية! ويا سيد الصحراء! عُدْ إلى

قوتك وعزمك، وامتلك ناصيةَ الأيام، وخذْ عنان التاريخ، قُدْ قافلة البشر نحو الغاية المثلى، لن تسعكم الصحراء والفيافي، فاضربوا خيمتكم في وجودكم الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة، وأقوى من السيل، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح".(١٩)

وعلى العموم فإن شعره يمثّل انتفاضةَ روح مؤمنٍ راغب في الله، وأشواقَ قلبٍ طاهرٍ غيورٍ على عقيدته، غيور على دينه، غيورٍ على أمته، وألحانَ وفاء لفكرة باعها نفسه، ووقف عليها عمره، إنّ جلَّ ما يعنيه أن يؤدّي واجباً يشعر أنّ عليه أداءه، وأن ينفث في الشباب الروح، ويشارك في حداء أمته إلى المجد إلى الإسلام: "إنّي هائم في شعري وراء تلك الشعلة التي ملأت العالم بالأمس حرارة ونوراً، وقد قضيتُ حياتي في البحث عن تلك الأمجاد وأولئك الأبطال الذين رحلوا، لقد سالت في شعري دموعي ودمائي، وفاضت فيه مهجتي، ودعائي ألّا يخفف الله مني هذا الجوى، بل أسأله المزيد والجديد".(٢٠)

إذاً فلنتعلم الحب ولوعته من كبد إقبال، ولنشرب الصهباء من المنهل المقدّس الذي شرب منه إقبال، ولندرس الشعر والأدب في مدرسة إقبال، مدرسة أمجادنا التي وقف ينشج على أطلالها أعجمي من الهند، ومن الإنصاف أن نذكر أنّه ظهر في هذه الأمم أدباء مبدعون، امتلأت وجداناتهم بالإسلام، وتفجّرت قرائحهم بعطاءات مدهشة، واستطاعت فصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم أن تهزّ شعوبهم، بل إنّ بعض إبداعهم تجاوز خريطة بلادهم إلى آفاق عالمية، فتُرجم إلى لغات عدّة، وحظي بإعجاب المتذوقين والدارسين، مما يؤكّد أنّ الأدب الإسلامي عالمي، يستمدّ عالميته من عالمية الإسلام، فيستوعب آداب الشعوب الإسلامية كلّها، وإن كانت اللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى، وإن كان الحلم الكبير لدعاته أن تكون العربية لغة المسلمين جميعاً.

وهؤلاء الشعراء كانوا عواطف الإسلام الحارة ومشاعره النابضة، كما كان أحمد شوقي أمير الشعراء الباكيَ الحزين في مآتم الإسلام وهزائمه، والمغنّي المفرح في انتصاراته، وله عدد من القصائد في المناسبات الإسلامية المختلفة كالهجرة والمولد النبوي، وله نهج البردة الشهيرة وهمزيته الرائعة، وله بعض القصائد التي تترجم عن حياتنا الاجتماعية والسياسية ومشاكلها، وهذه بدورها لا تخرج عن صبغتها الإسلامية، لأنّ مشكلات المجتمع وأحداثه جزء من العقيدة الشاملة المسيطرة على حياتنا في شُعبها المختلفة، وشعره الإسلامي شعر مُحبٍّ لأمجاد الإسلام وتراثه، معجب ببطولاته وأيامه الخالدة ومبادئه السامية، غيور على هذا الدين ومستقبله، ومستقبل أبنائه، هذا إلى جانب إدخاله الشعر التمثيلي لأول مرّة في تاريخنا الأدبي، بيد أنّ الحرب المعلنة على الأدب الرفيع أجهزت على المشروع كله، فانتهى بنهاية شوقي.

أما أحمد محرم صاحب (ديوان مجد الإسلام) فقد حاول أن يقدّم ملحمة إنسانية، تتحدّث عن معارك الإسلام الكبرى وأحداثه التي غيّرت مجرى التاريخ، فتغنّى في حرارة وصدق بالمُثل الإسلامية والفضائل العظيمة التي تبرز في كلّ سطر من سطور كتاب الإسلام الضخم، ولعلّه كان أكثر شعرائنا المحدثين انكباباً على هذا الموضوع وتحمساً له، وتفانياً فيه.

وكان لأدب علي باكثير نكهة حلوة، فهو لون أدبي ناصع البياض، مشرق اللمحات، واضح الأصالة، استطاع أن يصوّر بعض صفحات التاريخ الإسلامي الخالد، ويعبر عن نماذجه الفذة، ولا سيما في قصة (وا إسلاماه) و(سيرة شجاع)، وفي مسرحياته (دار ابن لقمان) و(إله إسرائيل) و(جحا) و(شهرزاد) و(الدنيا فوضى)، وكانت أغلب كتاباته مستمدّة من التاريخ أو الأساطير القديمة، وكان متمسكاً بالمبادئ الإسلامية، والدعوة إلى التجديد، وإحياء التراث، وإعادة النظر فيه، والتطور به إلى مرحلة أنضج وأروع، فكان رائداً من رواد المسرح العربي، وأحد رجال الطليعة في القصة العربية، ومفخرة من مفاخر أدبنا الحديث.

لقد استطاع الشاعر في العصر الحديث أن يتفاعل مع الأزمات والمحن التي تتعرض لها الأمة، فهو لا ينسى أنّ أمّته –في أطرافها المختلفة– مبتلاة بداء الغزو العسكري والثقافي والفكري، فنراه يتغنّى بحضارتنا الباسقة، يوم كنّا حملة وحي وصلة بين السماء والأرض، فلمّا خُنَّا كتابنا، وأرخصنا رسالتنا طاردتنا نقمة رهيبة، بدّدتنا أيادي سبأ، يقول محمود غنيم متحسّراً:(٢١)

ويحَ العروبةِ كانَ الكونُ مسرَحها
فأصبحتْ تتوارى في زواياهُ
أنَّى اتَّجهتَ إلى الإسلامِ في بلدٍ
تجدْهُ كالطيرِ مقصوصاً جناحاهُ
كم صرَّفتنا يدٌ كُنَّا نُصرِّفُها
وباتَ يحكمنا شعبٌ ملكناه

وهكذا فار الأدب العربي أوائل العصر الحديث فورة عظيمة، ووُجد شعراء وكتّاب أعادوا للعربية قوّة الأداء وسحر البيان، ذلك أنّ نهضتهم الأدبية المباركة كانت مبنية على المهاد الأوّل، وكانت تصل من أمجاد المسلمين ما أضاعه التفريط فيما بعد، فجاء حفاظهم على التراث، وتقديسهم للقيم الدينية، وولاؤهم العميق للغة العربية ثابتاً لا يتزحزح، بيد أن الاستعمار الثقافي وضع العقبات في طريقه، فبعد أن كان أمير الشعراء يُغنّي في أفراح الإسلام، ويبكي في مآسيه، ويستصرخ الشعوب لمصير الأمة، جاء أدب آخر يرفض هذه الموضوعات جميعاً، ويدغدغ الغرائز، ويحدو الشباب إلى دور اللهو والهوى، حتى شَحَبَ الشعر الذي تورّد أيام البارودي وشوقي وحافظ ومحرّم والجارم وأمثالهم، وحلّ محله غثاء يُسمى الشعر الحديث، وخَفَتَ أدب الرافعي والعقّاد والزيّات وعلي الطنطاوي وشكيب أرسلان، وحلّت محلّه مقالات يمكن أن تكون وسطاً بين العامية والفصحى، وبين الصياغة الرفيعة والترجمات الركيكة عن اللغات الأخرى، وتوقّحت اللهجات السوقية، وأصبحت التعبيرات الهابطة تملأ وسائل الإعلام وتغلب على الناشئة، وتكاد ملامح الشخصية العربية تزول، والجماهير المخدّرة تشدّها إلى القاع أقلام ليس في نفثاتها فنّ، ولا قيم رفيعة، ولا غايات نضيرة، وعلاقتها بالإسلام وتعاليمه مقطوعة، مما يؤكد أن المعركة الأدبية ضخمة، وحراس الإسلام الآن في معركة بقاء أو فناء.

إنّ الأمر يتطلّب الكثير من المراجعة والنقد والتقويم، لما يملأ الساحة من أدب على المستوى العربي أو على المستوى الإسلامي، وخاصة في مجال القصص والسِّيَر والأعلام وأدب الطفل بشكل عام، سواء من حيث الشكل أو المضمون، ولابدّ من النظر في مستقبل الأدب الإسلامي، وتأكيد أهميته في بناء مستقبل الأمة، والعمل على حسن صناعته وفق منهجية واضحة، وأدوات ملائمة، تحقق استردادَ الفاعلية، وتقديمَ أدب إسلامي متميز، ينطلق من مرجعية الأمة، ويغرس قيمها في النفس، ويحقق استقامة السلوك، فيتحول الفكر إلى فعل، والإيمان إلى حركة، ذلك أن الاستمرار في حالة العجز عن التغيير، والارتقاء فيما نقدم، يعني أنّ هنالك خللاً ما في وسائل الأداء، لابدّ من كشفه ودراسة سببه، وهذا يتطلب علماء وكتّاباً ومفكّرين متخصصين، يمتلكون أدوات النقد الصحيحة، كما يمتلكون القدرة والبصيرة على الخوض في أدق المسائل النفسية والتربوية، والإفادة من تجارب الآخر، ليخلصوا منها إلى وسائل سليمة تتحوّل إلى ثقافة اجتماعية في الأمة، حتى نتمكّن من بلوغ المستقبل المأمول، ونحضّر أجيالنا ليكونوا رسلنا، وحملة قيمنا إلى العالم جميعه في عالم الغد، فالأدب الإسلامي يختزل لهم الأعمار العقلية، ويقدّم لهم الخلاصة لرحلة فكرية عملاقة، إنّه يجسّد الشخصية المسلمة، ويعزّزها، ويرتقي بها إلى أن تعود (خير أمة أخرجت للناس)، وهو منطلقنا إلى بناء خطابنا المعاصر، مستخدمين الفنون الشعرية، وأجناس القول من القصة والمَثَل والرواية والمقالة والمسرحية، ومخاطبة الإنسان عقلاً وعاطفة وفطرة وتاريخاً ونشأة ومصيراً.

لذلك كم نحن بحاجة إلى عمل تأصيليّ، وإسهام جادّ لتغيير المسار الأدبي، حتى يشمل فعاليات الحياة كلّها، مع العمل على إيضاح شروطه وأدواته وعناصره وأخلاقياته، والمعارف النوعية المطلوبة له، لتدرك الأمة أنّ ما تمتلكه من القيم هو سلاحها الفعّال، وهو سفينة النجاة للإنسانية.

أسأل الله أن يكون هذا البحث لَبِنة في طريق استرداد الفاعلية، وامتلاك الحكمة وفصل الخطاب، لتستعيد الأمة دورها الحضاري، وتحسن الإفادة من الفنون ووسائل الإعلام، فلقد شَخَصَتْ عيون الناس وهي تتطلّع إلى أدب إسلامي متميّز، ويبست منهم الأعناق وهي تشرئبّ منتظرة، وذبلت الآمال وهي تصبر على مرارة الأيام، فمتى يا حضرات الأدباء؟

وكوثرُ أحمدٍ منكم قريبٌ

ولكن شوقُكم عنه بعيدُ!

إنّ الكتابةَ في الأدب الإسلامي وخصائصه وفنونه ميدانٌ لا يزال ينتظر الرجال!

حواشي البحث:

(١) روائع إقبال: ٦٩
(٢) نداء إقبال: ٤١
(٣) روائع إقبال: ١٤٢
(٤) الكامل، المبرد ٢٤٨/١
(٥) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، المكتبة الشاملة، من الشابكة.
(٦) المكتبة الشاملة، من الشابكة.
(٧) صيد الخاطر، المكتبة الشاملة، من الشابكة.
(٨) شرح ديوان المتنبي ٤١١/٢
(٩) المكتبة الشاملة، في الأدب الحديث، من الشابكة.
(١٠) شرح ديوان المتنبي ٣٠١/٢-٣٠٢
(١١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني: ١٠٣-١٠٤
(١٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي: ١٥
(١٣) إقبال الشاعر الثائر: ٣١
(١٤) إقبال الشاعر الثائر: ١٧
(١٥) نداء إقبال: ٥٧
(١٦) روائع إقبال: ٦٣
(١٧) روائع إقبال: ٥٨
(١٨) روائع إقبال: ٦٧
(١٩) روائع إقبال: ١٢٧
(٢٠) روائع إقبال: ١٤٧
(٢١) المكتبة الشاملة، في الأدب الحديث، من الشابكة.

المصادر والمراجع:

١- الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٧م.
٢- إقبال الشاعر الثائر، د. نجيب الكيلاني، الدار العلمية، ط٢، ١٩٧١م.
٣- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م.
٤- روائع إقبال، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ٢٠٠٦م.
٥- شرح ديوان المتنبي، البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٠م.
٦- العربية لسان النبوة الخاتمة، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨م.
٧- الكامل، المبرّد، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
٨- مقالات إسلامية، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٥م.
٩- المكتبة الشاملة، من الشابكة.
١٠- من الفكر والقلب، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٩٧م.
١١- نداء إقبال، مؤتمر إقبال بدمشق لعام ١٩٨٥، دار الفكر.